كتاب جديد في الموضوع*

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

لا اعرف كتاباً عصرياً في الادب العربي احدث الضجّة التي احدثها كتاب الدكتور طـه حسين[1] . ولا اعرف موضوعاً عربيّاً لعهدنا اسال من الحبر ، وسوّد من الورق ، مـا أساله وما سوّده موضوع الشعر الجاهلي . ولم يكن السبب في كل هذا فضيلة خاصّة بالموضوع ، او ميّزة جوهرية في الكتاب . انما تضافرت على ذلك اسباب متعدّدة منها داخلية في المؤلّف ، وان تكن خارجة عن موضوعه ؛ ومنها خارجية عن الكتاب وعن الموضوع . امّا الاولى فمثالهـا تلك الآراء التي طرحها الدكتور يريد ان ينال بها من الادب القديم ورواته ، فنال من الدين وكتبه . واما الثانية فهي ان الكتاب ثمرة من ثمار الجامعـة المصرية ، وان صاحبه استاذ من اساتذتها — بل هو «ابنها البكر» على نحو ما جاء في خطبة لمديرها — وان الجامعة المصرية مؤسّسة اميريّة تعيش بمال الأمّـة وتلتحق بوزارة المعارف ، فاستاذها اذًا موظّف من موظّفي الحكومة عليه ما على سائر الموظّفين من الواجبات . واذا عرفنـا ان من هذه الواجبات احترام

---

* النقد التحليلي لكتاب « في الادب الجاهلي » بقلم محمد احمد الغمراوي ، وله مقدمة بقلم الامير شكيب ارسلان — القاهرة ، المطبعـة السلفية ، ١٩٢٩ — ص ٦٠ + ٣٢٥ ، وسط — الثمن ١٥ غرشاً .

١) الدكتور طه حسين : في الشعر الجـاهلي — القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ — ص ١٨٣ صغير — ثم « في الادب الجاهلي » — مطبعة الاعتماد ١٩٢٧ — ص ٢٧٦ وسط

دستور البلاد بجميع ما فيه ، واذا عرفنا ان هذا الدستور يقرّر الاسلام ديناً رسمياً للحكومة المصرية ، واذا رجعنا الى رأي علماء المسلمين القائل : « ان الكتاب كله مملوء بروح الإلحاد والزندقة » وانه « دعامة من دعائم الكفر ، ومعول لهدم الاديان »[1] ، ادركنا السبب المهمّ في تلك الثورة الفكرية . وهناك سبب آخر خارجي ايضاً ، وهو ان صاحب الكتاب ركن من اركان «المجدّدين» في الادب ، او ممّن يدعون انفسهم بالمجدّدين ، وينتمون الى معقل التجديد الماثل بالجامعة القائمة تجاه الازهر ، معقل العلم « القديم » في مذهبهم . فاذا كان الكتاب قنبلة يُلقيها «المُجددون» ديناً وادباً ، في صفوف « القدماء » المحافظين ديناً وادباً ... فتطايرت شظاياها واصابت رجال الفريقين ، فقاموا يتناظرون في الجرائد والمجلّات والكتب ، بنفثات تتراوح بين القديم والحديث ، ولهجات تتباين بين الشدّة والاندفاع ، ووجهات نظر تختلف بين الدين والادب . فمن مصطفى صادق الرافعي يناضل « تحت راية القرآن »[2] بكل ما في قلبه من جرأة وحماسة ، وبكل ما في لسانه من بلاغة وسلاطة ، يرمي الكتاب وقصده المؤلف ، ويرمي المؤلف وقصده الجامعة ، ويرمي الجامعة وقصده الفكرة التي تديرها ، الى محمد فريد وجدي[3] يجتهد ان يوفق بين القديم والحديث ، وان يجمع بين الاثبات والانكار ، يثني على منهج الدكتور ويعدّه « من اكمل المناهج بل هو المنهج الوحيد الذي ينطبق على اصول الفلسفة العصرية المنتجة »[4] ولكنه يأسف ان يكون المؤلف أخذ هذا المنهج عن ديكارت ويودّ لو اخذه عن القرآن[5] ، يرى اختلاق اكثر الشعر الجاهلي ناسباً كتب المحاضرات الى الكذب والتزوير ، ولكنه يرى ايضاً انه « لا يمكن الاستغناء عن هذا الشعر

---

١) راجع قرار لجنة العلماء المرفوع لشيخ الجامع الازهر في ٢٦ شوال ١٣٤٤

٢) مصطفى صادق الرافعي : تحت راية القرآن ، المعركة بين القديم والجديد ، القاهرة ١٩٢٦

٣) محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي ، القاهرة ، ٥ اكتوبر ١٩٢٦

٤) الكتاب المذكور ، ص ١٥

٥) الكتاب المذكور ، ص ١١

في بناء تاريخ العرب الجاهليين.»[1] ؛ الى محمد لطفي جمعه[2] يجتهد في السير على اسلوب علمي محض حتى اذا رأى الفرصة سانحة افسح المجال لعاطفته وحماسته ؛ الى محمد الخضر حسين التونسي[3] يحلل الكتاب المنقود فقرة فقرة وفصلا فصلا فيزيفها ويتوسع في ذكر سبق المستشرق مرغوليوث الى آراء الدكتور في الشك والانكار ؛ الى غيرهم من كتاب المقالات المتعددة ممن لا يسعنا سرد اسمائهم.

اما موقف الدكتور طه حسين تجاه هذه الحملة فكان ، على ما ظهر ، اقرب الى السكينة منه الى الحركة والضجة . وكأنه لم يكترث الا لنتيجة ما نُسب اليه من الكفر ، فصرّح على صفحات الجرائد بانه مسلم مؤمن بالله وبانبيائه ؛ وبانه لم يقصد الطعن في دين من الاديان . على ان هذا التصريح لم يكف . فرأت الحكومة ، على اثر هياج المجلس النيابي ، ان تمنع انتشار الكتاب ، فضبطت جميع نسخه.

ثم أجيز للمؤلف ان يستفيد مما كان في كتابه لا يمسّ الدين ولا يحطّ من كرامة الانبياء. فحذف منه ذلك الفصل وتوسع في غيره ، ونشره سنة ١٩٢٧ ، قائلا في مقدمته : « هذا كتاب السنة الماضية حُذف منه فصل واثبت مكانه فصل وأضيفت اليه فصول...» اما عنوانه فاستبدل به عنواناً جديداً ، وبعد ان كان « في الشعر الجاهلي » اصبح « في الادب الجاهلي »

وهذا الكتاب هو الذي يحلله الاستاذ محمد احمد الغمراوي وينتقده في كتاب جديد أهدي الينا مؤخرًا . فنرى ان الانتقاد على الدكتور طه حسين لم يختصّ بذلك الفصل المحذوف ، بل هو يتناول كل نظريته وتطبيقاتها المتعددة ، بل هو يتناول منهج البحث نفسه ويمحّص علمية تلك الطريقة في الشك والتردد التي نسبها المؤلف الى ديكارت.

وهو ما انتبه له الاستاذ الغمراوي ، فبذل الجهد في الاطلاع على مظانّ

---

١) ك. م. ص ٣١ — ٣٢

٢) محمد لطفي جمعه : الشهاب الراصد : بحث تحليلي انتقادي وردّ علمي تاريخي على كتاب « في الشعر الجاهلي » — القاهرة ، ١٩٢٦ .

٣) محمد الخضر حسين التونسي : نقض كتاب في الشعر الجاهلي — القاهرة ، ١٣٤٥ .

على قول الدكتور ان نسيان القومية والدين شرط اساسي من شروط البحث العلمي . وهي هذه بنتها (ص ١٢٢–١٢٣) :

«انه ذهب الى ان نسيان القومية والدين شرط اساسي من شروط البحث العلمي. ان كان اراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق او يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محابـاةً لقوميته او ارضاء لعاطفته الدينية فقد اصاب . اما اذا كان اراد ان الانسان لا يستطيع ان يكون ذا عاطفة قومية او دينية قوية من غير ان يحابي او يداجي في العلم فقـد اخطأ ولم يصب . ان الانسان يستطيع ان يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ، ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجوّز على قرآنه خطأ او على توراته . بـل ان التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص ان امكن حرصاً على الحق واشـمـاكاً بـه اذا وصل اليه . ان الباحث المتدين بين محبين في الحق : دينه وعلمه ، ومبغضين في الباطل : دينـه وعلمه كذلك . فهو يحب الحق مرتين مرة لدينه ومرة لعلمـه . ويبغض الباطل مرتين كذلك . ولا خوف عليه مطلقاً ان يُخفي بعض الحق او يدلس في البحث محابـاة لدينه ، اذ ليس الحقّ يخاف على دينه ولكن الباطل . هو يعلم ان دينه حق ، يعلم ذلك علم مستيقن . ويعلم ان العلم قائم على قاعدة استحالة التنافي بين اجزاء الحقّ ، يعلم ذلك علم مستيقن ايضاً . فهو لا يخشى ابداً ان يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافي دينه ولذلك يمضي في ابحـاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق في البحث والتفكير ، لا لان هذا هو الطريق الوحيد للوصول الى نتائج صحيحة فحسب ، ولكن لان هذا في اعتقاده هو ايضاً الطريق الوحيـد الذي لا يؤدي الى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدين الذي يؤمن به. فالتدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح يمكن اجتماعهما اذن ، وكثيراً ما اجتمعا ، كما ان العاطفة العلمية القويـة والعاطفة الدينية القوية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الاخلاص في البحث.»

ومن نتائج المصدر الاول ايضاً سبق مرغوليوث للدكتور في نظرية وضع الشعر الجاهلي الذي اشار اليه اكثر من انتقدوا الكتاب كمحمد الخضر حسين التونسي[1] ومجلة الزهراء التي لخصت مقال المستشرق المذكور[2] . ومنها مسألة تلك النقوش الحميرية التي تكلّم عنها الدكتور طه حسين في كتابه الاول كلامه عن برهان يثبت الفرق بين اللغتين العدنانية والقحطانية. فطلب منه عزة دروزة «ان يأتيه بامثلة من تلك النصوص والنقوش التي تثبت المغـايرة الواسعة بين العدنانية

---

١) محمد الخضر حسين التونسي : الكتاب المذكور ، ص ١٧ ، ٤٧ ، ٥٢ . . .
٢) الزهراء (٤ : ٦١٨ – ٦٣٠)

والقحطانية في اللفظ والقواعد والتصريف ... وان يبين اقرب تاريخ امتدت اليه هذه المغايرة.»[1] وكأن الدكتور انتبه للقسم الاول من هذا الطلب فاورد ثلاثة امثلة من تلك النصوص في كتابه الثاني (ص ٨٨ — ٩١) . ولكنه تغافل عن القسم الثاني فلم يبيّن «اقرب تاريخ امتدت اليه هذه المغايرة» وانّى له ان يبيّن ذلك ! فاستغلّ الاستاذ الفمراوي هذا الإغفال وتوسّع فيه وبنى عليه فصوله في الصفحات (١٦١ — ١٨٩) ثم اردفها بالشعر الجاهلي واللهجات ، ثم بالعربية ولغة قريش (١٨٩ — ٢١٢) . ومن ذلك مسألة نقل الدكتور الكثير من معلوماته وآرائه عن ابن سلّام. وكان قد ذكرها ، مصطفى صادق الرافعي[2] وذكر غيره شيئاً متفرّقاً في الأمر . فجمع المؤلف كل ذلك وتوسّع فيه ، شأنه في سائر ابحاثه ، واخرج منه ذاك الفصل الشائق الذي سماه «دَين القدماء على صاحب الكتاب» (ص ٢٦٧ — ٢٧٦) . ومن ذلك مآخذ عديدة في تطبيق النظرة على الشعراء مما اشار اليه الكثيرون من النقدة ، واشرنا الى بعضه في «الروائع» (في الاجزاء: الثاني ، والثالث ، والسابع)

واما ما انتجه المصدر الثاني فالقسم الاول من النقد (ص ١ — ١٠٠) بما فيه من الملاحظات الدقيقة في المحذوف من الكتاب واغفال اسباب حذفه (١ — ٤) وذكر اقوال الدكتور في معاصريه (٨ — ١٧) وبسط آرائه في الاصلاح والتجديد (٣٦ ...).

واما المبتكر فهو تلك الآراء الطريفة ، والنظرات الدقيقة التي بثها المؤلف في فصوله عامّة وخصّ بها بعض موضوعات ، كالادب ومنشأ اسمه وتاريخه ومقاييسه ، واللاتينية واليونانية وعلاقتهما بالادبين الغربي والعربي ، والتقليد وتأثيره ، وحرية الادب ، والنقد الادبي والتاريخي . ولعلّ ادق ما في تلك الابحاث — وكلها دقيقة نفيسة — تحديد المؤلف للذوق الشخصي والذوق المكتسب وتأثيرهما في الادب ، وايضاحه للكثير من القضايا المشكلة في الادب العربي العصري ، كقضية التقليد ، وقضية القديم والجديد . اما البحث في الذوق فيراه

١) في الزهراء (٣ : ٣٤٧)

٢) مصطفى صادق الرافعي : الكتاب المذكور ، ص ١٦٥